الفصل الرابع

العنف الصهيونى

obeikandl.com

obeikandl.com

المقاومة الفلسطينية والعنف الصهيونى

ظهر فى الآونة الأخيرة مصطلحات مثل «إيقاف العنف» و «وقف إطلاق النار» و «ضبط النفس» إشارة إلى ما يحدث فى فلسطين المحتلة. وهذه المصطلحات تحمل تحيزات محددة، فهى تصنِّف كلاً من المقاومة الفلسطينية والعنف الصهيونى على أنهما نفس الشىء، وكأن هناك حالة حرب بين جيشين متكافئين أو شبه متكافئين يحاربان بخصوص قطعة أرض متنازع عليها، ولكل فريق حقوق متساوية فيها، وكأنه لا يوجد قرارات أصدرتها هيئة الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٩ تعطى أحد الفريقين حقوقاً فى أرضه. إن هذه المصطلحات تسوِّى بين من يحمل السلاح ويدافع عن أرضه وكرامته وإنسانيته من جهة، ومن جهة أخرى من يغتصب الأرض وينكل بأصحابها ويستخدم آخر ما توصلت إليه التكنولوجيا العسكرية. ولنتصور لو سُميت الأشياء بأسمائها وقلنا «إيقاف المقاومة» أو على العكس قلنا «إيقاف أعمال الاغتصاب والقمع الإسرائيلى» ألن يكشف هذا التحيزات الكامنة؟

إن كلمة «مصطلح» من الفعل «اصطلح»، فيقال «اصطلح القوم»، أى «زال ما بينهم من خلاف» و «اصطلحوا على الأمر»، أى «تعارفوا عليه واتفقوا». والاصطلاح معناه اتفاق طائفة ما على شىء محدد، ولذا سمى «علم الاصطلاح»، «علم التواطؤ». ولكن فى حالة «وقف العنف» والمصطلحات الأخرى الشبيهه، هل اشتركنا فى تحديد معناها، أم أننا استوردناها ثم رددناها دون وعى من جانبنا للتحيزات التى تخبئها؟

الحال لا يختلف كثيرًا بالنسبة لمعظم المصطلحات التى تُستخدم لوصف الظواهر اليهودية والصهيونية مثل «الشعب اليهودى» أو «الوحدة

اليهودية» أو «العبقرية اليهودية». ونحن لو دققنا النظر لوجدنا أن أصل معظم هذه المُصطلَحات هو المُصطلَح التوراتى «الشعب المختار أو الشعب المقدس»، وهو مُصطلَح يفترض أن اليهود يكونون كتلة بشرية تتسم بقدر كبير من الوحدة والتماسك يتجاوز كل الأزمنة والأمكنة، كتلة لها «تاريخ يهودى» مستقل يتسم بقدر عال من الوحدة والاستمرارية. ولذا فالإنسان الغربى يرى أعضاء الجماعات اليهودية - رغم تنوعهم الهائل - على أنهم يكونون كيانًا واحدًا رغم أن هؤلاء اليهود كانوا عبرانيين فى بادئ الأمر ثم تطورت عقيدتهم من العبادة الإسرائيلية القربانية إلى العقيدة اليهودية الحاخامية، وتفرع عنها اليهودية السامرية، وظهر كذلك القراءون والمارانو والدونمه والفلاشاه. ثم نجد فى العصر الحديث اليهود من المحافظين والإصلاحيين والأرثوذكس، ثم اليهود الملحدين والإثنيين وغيرهم. وتوجد عشرات الجماعات اليهودية غير المتجانسة سياسيًا وحضاريًا. كل هؤلاء رآهم الغرب داخل تحيزه التوراتى باعتبارهم العبرانيين أو اليهود أو الشعب المختار الذى تمتد إليه ذراع الإله القوية تقوده فى خروجه من مصر وتجواله فى أرض التيه وفى صعوده إلى أرض الميعاد!

ومن المُصطلَحات الأخرى التى اخترقت معجمنا مُصطلَحات مثل: «المنفى» و «الشتات» و «الدياسبورا»، وهى مُصطلَحات تفترض أن ثمة علاقة عضوية بين «الشعب المختار» و «الأرض الموعودة» أو بين اليهود وفلسطين، وأن ثمة مركزية لليهود فى تاريخ فلسطين ومركزية لفلسطين فى تاريخ اليهود، إذ إن الرب قد وعد شعبه بفلسطين وجعلها مقصورة عليه. ورغم أن هذه الأرض المقدسة كانت تُدعى «رتنو» عند الفراعنة، ثم أصبحت «كنعان»، وأصبح ساحلها يُدعى «فلستيا»، ولفترة وجيزة سُميت بعض أجزائها «يهودا وإسرائيل» ثم سُميت كلها بعد ذلك

«فلسطين»، وأصبحت مقاطعة رومانية ثم بيزنطية مسيحية وأخيرًا جزءًا من الدولة الإسلامية، إلا أنها تجمدت وتحولت فى الوجدان الغربى إلى إرتس يسرائيل.

ولأن اليهود شعب واحد نُفى من «أرضه الموعودة» قسرًا، ولأنه مرتبط عضويًا بها، فإن هذا الشعب يتطلع دائمًا إلى «العودة» إلى أرض الأجداد. ومُصطلَح «العودة» لا يمكن فهمه إلا فى إطار الإيمان بمركزية فلسطين فى حياة اليهود، فهم حينما يبتعدون عنها فإنهم «يتشتتون» ويشعرون بالغربة و «النفى»، ويريدون «العودة» إليها. وعبارة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» لا يمكن فهمها إلا فى إطار تصور أن اليهود شعب واحد مستمر فى وحدته عبر التاريخ، وفى رغبته فى العودة، وأن أرض فلسطين هى أرضه، إن تركها تصبح أرضًا فارغة من السكان بلا شعب، تنتظر سكانها من أعضاء الشعب اليهودى ليعودوا إليها، فهم العنصر المركزى بالنسبة إليها، وما عدا ذلك فهو شىء عرضى غير أصيل. وهم حينما يعودون ليسوا مغتصبين للأرض وإنما «رواد» صهاينة، فالرائد هو من يصل إلى أرض خراب فارغة لا يوجد سكان فيها. وإن استوطن هذا الشعب فى أرض غير فلسطين فهو شعب بلا أرض. ولتحقيق الاستمرارية ولرأب الصدع لابد أن يعود الشعب للأرض وتعود الأرض للشعب فيعم السلام ويسود الوئام. ولذا عُرِّفت الصهيونية بأنها «عودة اليهود لأرض الأجداد».

وغنى عن القول أن مُصطلَح «العودة» شأنه شأن المُصطلَحات الأخرى («الشعب اليهودى» و «التاريخ اليهودى» و «الشتات» و «النفى») التى تشكل حجر الأساس فى العقيدة الصهيونية تتنافى كلها تمامًا مع الواقع التاريخ للجماعات اليهودية وفلسطين. ففلسطين عامرة بسكانها، واليهود ليسوا شعبًا كما أسلفنا، بل جماعات، وهم لا يريدون العودة إلى أرض

الأجداد، فهم قابعون بأوطانهم التى يقطنـون فيـها، وإلا لِـمَ ظلـت غالبيـة أعضاء «هذا الشعب» فى أوطانه ولم يسـارع بـالهجرة أو بـالعودة إلى وطنـه الأصلى؟ ولِـمَ لا تـزال غالبيـة يـهود العـالم خـارج وطـن الأجـداد، تتمتـع بمستويات معيشية مرتفعة فى الولايات المتحدة وكنـدا وفرنسـا وأسـتراليا.. إلخ، و «يعانون» من معدلات عالية من الإندماج والـزواج المختلـط! (الـذى يسميه الصهاينة «الهولوكوست الصامت»)؟

و «وقف العنف» هو خط طويل من المُصطلَحات المتحـيزة ضدنـا. فنحـن نرى أن وجود القوات الإسرائيلية فى الضفة الغربية هـو احتـلال للأراضـى الفلسطيينة، وتؤيدنا فى ذلك قرارات هيئة الأمم المتحـدة، ولكـن إسـرائيل والولايات المتحدة يسـتخدمون بـدلاً مـن ذلـك عبـارة «أرض متنـازع عليـها disputed territiory». وقـد تحدثـوا بعـض الوقـت عـن «الأرض مقـابل السلام»، وقد تطور هذا ليصبـح «الأرض مقـابل الأمـن» و «الأمـن مقـابل الأمن»، إلى أن تدهور الأمر تمامًا وأصبحت المسألة «الأرض مقابل الكـلام». وكل هذه الشـعارات تـهدف إلى فـرض المفـاهيم الصهيونيـة الأمريكيـة فـى السلام، والتى تعنى فى واقع الأمر الاستسلام وقبول تقسيم دولـة فلسـطين إلى كانتونات وبقاء المستوطنات والرضوخ للمطـالب الإسـرائيلية فـى القـدس الشرقية، وأخيرًا التنازل عن الحق الفلسطينى التاريخى فى عودة اللاجئين الفلسطينيين.

ولكن يوجد استثناء واحد لهذه الظـاهرة، وهـى كلمـة «انتفاضـة» التـى تتلألأ كالنجم الساطع فى سمائنا، وكالشمس الحارقة فى سمائهم. وحينمـا ظهرت كلمة «انتفاضة» لأول مرة مع انتفاضة ١٩٨٧، حاول بعض الكُتَّـاب إسقاطها وإحلال الكلمة «ثورة» محلها. ولكن كلمة «انتفاضة» مناسبة تمامًا لوصف ما حدث فى فلسـطين عـام ١٩٨٧، ومـا يحـدث فيـها فـى الوقـت

الحاضر. والكلمة مشتقة من فعل «نفض» مثل «نفض الثوب» يعنى «حركه ليزول عنه الغبار أو نحوه». ولعل هذا وصف دقيق للاستعمار الاستيطانى الصهيونى الذى لم يضرب جذورًا فى تربتنا الجغرافية والتاريخية، فهو مثل الغبار الذى علق بالثوب الفلسطينى ولم يمس الجوهر. ويقولون أيضًا «نفض المكان» أى «نظر جميع ما فيه حتى يعرفه»، وهذا «تاكتيك» معروف لدى شباب الانتفاضة، ويقولون أيضًا «نفض الطريق» أى «طهره من اللصوص». ويقال «النفضة» وهى «جماعة يُبعثون فى الأرض متجسسين لينظروا هل فيها عدو أو خوف»، وهذا أيضًا تاكتيك آخر للمنتفضين. و تحمل الكلمة أيضًا معانى الخصوبة فيقال «نفض الكَرْم» أى «تفتحت عناقيده». ويقال - وهذا هو الأهم - نَفَضَت المرأة» أى «كثر أولادها»، و «المرأة النفوض» هى المرأة كثيرة الأولاد، أى المرأة التى لا تكف عن الإنجاب تمامًا مثل الأنثى الفلسطينية. وانظر كذلك إلى تعبيرات مثل «نفض عنه الكسل» و «نفض عنه الهم» وكذلك «انتفض واقفًا»، وهى كلها اصطلاحات تعنى أن ما يحدث الآن كان هناك دائمًا.

إن «الانتفاضة» (بما تحمل من معانى الخصب والاستمرار والتجذر من نفسه) ليست «ثورة» (بكل ما تحمل من معانى الاحتراق والبدايات الجديدة). إن الثورة انقطاع، أما الانتفاضة فعودة لما سبق واسترجاع للهوية التى سُلبت حتى تصبح «إسرائيل» مرة أخرى «فلسطين» كما كانت دائمًا عبر التاريخ وكما ستكون بإذن الله فى المستقبل. ولا يمكننا أن ننسب لشباب الانتفاضة - الذين اختاروا المصطلح - معرفة بكل هذا وإدراكا واعيًا له. ولكن لا يمكن أيضًا أن ننكر إحساسهم الحضارى السليم بلحظتهم التاريخية أو ارتباطهم المباشر بتراثهم أو إعراضهم النفسى والمعرفى عن النموذج الغربى. فقد آثروا أن يحملوا علم الانتفاضة بكل مدلولات الكلمة العميقة الدالة والتى

لا نظير لها فى اللغات الأوربية (ومن هنا يكتبون فى الصحف الغربية كلمة «انتفاضة» بحروف لاتينية intifada مما ينم عن إدراكهم لخصوصيتها). إن المناضلين الفلسطينيين فى اختيارهم لكلمة «انتفاضة» وضعوا أيديهم على واحدة من أهم خصائص تحركهم التاريخى المبارك: وهو أنه تحرك يتم داخل إطار الهوية التى تمتد من الماضى عبر الحاضر إلى المستقبل بإذن الله.

شارون والعقلية الإسرائيلية

تقول إحدى الأساطير اليهودية القديمة إن السيف والتوراة نزلا من السماء ملفوفين معًا، كما تقول إحدى الصلوات اليهودية: «فلتحل البركة على إله القوة الذى يُدرِّب يَدَىَّ على الحرب وأصابعى على القتال»، وتحمل كل وحدة من وحدات الجيش الإسرائيلى تابوتًا توضع فيه التوراة نُقشت عليه هذه العبارة: «انهض بالله ودع أعداءك يتشتتون واجعل الذين يكرهونك يهربون أمامك». وهذا التقليد بعث لتقليد دينى قديم حينما كان بنو إسرائيل يسيرون يحملون «تابوت العهد» أو التابوت الذى كانوا يتصوَّرون أن روح الله تحل فيه وتسير معهم أينما ساروا تهدى خطاهم وتحارب معهم وتهديهم سواء السبيل.

وحتى نفهم شارون حق الفهم، وتفهم العقلية الإسرائيلية، يجب أن ندرك أن معظم اليهود حين يتحدثون عن «إله» فإنهم لا يتحدثون عن إله العالمين وإنما عن إله قومى، مقصور على اليهود، إله اختارهم هم دون البشر. ولكن، كما يقول بن جوريون: «إذا كان الإله قد اختار اليهود، فهم أيضًا قد اختاروا إلههم». ويؤكد الحاخام كوك أن روح الإله وروح يسرائيل (الشعب اليهودى) واحدة، أى أن الإله والشعب المختار يدخلان فى علاقة تبادلية تتسم بالندية، الشعب لا يقل قداسة عن الرب، مما يعنى تهويد الإله وتأليه اليهود، فهما يكوِّنان وحدة واحدة. ولذا يمكن لجابوتنسكى أن

يشير إلى الشعب اليهودى بوصفه ربه. بل يمكن القول إن ثمة فكرة أساسية تسيطر على العقل الإسرائيلى وتوجهه، وهى أن ثمة وحدة كاملة وعلاقة عضوية صارمة بين الإله والشعب والأرض، ولذا يمكن لموشيه ديان أن يشير إلى الأرض باعتبارها ربه.

وهذه الرؤية لا تختلف كثيرًا عن رؤية الشعوب القديمة الوثنية. فإله كل شعب كان مقصورًا عليه، لا تتجاوز مقدرته حدود أرض هذا الشعب. ولذا كان على الإنسان الوثنى القديم، أن يقدم القرابين إلى آلهة المكان الذى ينتقل إليه. وحين كانت تحدث زيجات ملكية بين شخصين من مملكتين مختلفتين، كانت الملكة الجديدة تحضر معها تمثالاً من تماثيل آلهتها، وبعض كهنة العبادة التى تنتمى إليها، لتستمر فى عبادة إله وطنها! ولهذا السبب نفسه كان إله إسرائيل «ينتقل» معهم فى تابوت العهد من مكان لآخر، فيحتفظون بذلك برعايته وبقداستهم.

ولكن الأهم من كل هذا أن إله المكان يحابى شعبه ويتحيز له ويكيل للشعوب بمكيالين، فشعبه مقدَّس، أما بقية شعوب الأرض فمدنسة. وتتجلى هذه الفكرة فى العقيدة اليهودية. فقد جاء فى سفر أشعياء (٦١/ ٦٠٥) «ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب تسمون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجبرهم تتآمرون». كما جاء فى سفر ميخا (١٢/٤) «قومى ودوسى يا بنت صهيون لأنى أجعل قرنك حديدًا أظلافك أجعلها نحاسًا فتسحقين شعوبًا كثيرين».

وهذا التقسيم للعالمين إلى يهود يقفون داخل دائرة القداسة، وأغيار يقفون خارجها يضع اليهودى فوق التاريخ وخارج الزمان ويمنحه حقوقًا مطلقة فى فلسطين التى يدَّعى أنها أرضه، إرتس يسرائيل، التى تدخل دائرة القداسة معه.

وبظهور حركة الاستنارة في الغرب، كان لها صداها بين اليهود، فظهرت حركة إصلاح دينى فككت من قبضة هذه الرؤية العنصرية. ولكن الصهاينة بعثوها مرةً أخرى بعد أن فرَّغوها من مضمونها الدينى، وأصبحت دعوة للتفوق العِرْقى (والصهاينة فى هذا لا يختلفون كثيرًا عن المفكرين الاستعماريين الذين أطلقوا الادعاءات بخصوص الإنسان الأبيض وتفوقه الحضارى، الذى أعطاه حقًا مطلقًا فى استعمار الأرض وفى إبادة الشعوب أو استغلالها). بل لعلها كانت أكثر حدة وتطرفًا بسبب أن التراث الدينى اليهودى، فى بعض نواحيه، قد ألَّه الشعب وهوَّد الإله. ولكن عملية التأليه لما هو غير إلهى، وتهويد ما لا يقبل التهويد جعل التحالف بين اليهود العلمانيين والمتدينين ممكنًا، ولذا نلاحظ أن صياغة كوك الدينية وصياغة جابوتنسكى ودِيَان العلمانية الإلحادية متشابهتان تمامًا، فكلتاهما تنتهيان إلى شعب مقدَّس له حقوق مطلقة فى أرضه المقدَّسة، فهو شعب حل الإله فيه وفى أرضه (حسب صياغة المتدينين)، وهو شعب/ إله، وأرض/ إله فى صياغة العلمانيين، والفارق بين الاثنين أمر شكلى.

هذه الرؤية تفسر لنا تصوُّر شارون (والمستوطنون الصهاينة من ورائه) أنه يمكنهم الاستمرار فى المناداة «بحق» العودة ليهود العالم إلى فلسطين المحتلة (فقد تركوها منذ عدة آلاف من السنين) وينكرون نفس الحق على الفلسطينين (الذين تركوها منذ عدة أعوام. فاليهود (بعد تأليههم) لهم حقوق مطلقة، أما الفلسطينيون فليس لهم حقوق على الإطلاق، أو حقوقهم هامشية عرضية إذا ما قيست بحقوق اليهود، إن الشعار القديم «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض» يجب أن تُعاد قراءته على النحو التالى: «أرض [مقدَّسة] بلا شعب [لأن الشعب الذى يقطنها غير مقدَّس] لشعب «مقدس» بلا أرض [مقدَّسة] ولأن الشعب مقدَّس، فالعنف الذى يرتكبه ضد الآخرين هو الآخر مقدَّس. ولذا ذهب الحاخام كوك إلى أن الجيش

الإسرائيلى هو القداسة الكاملة، وهو الذى يمثِّل الحُكم لشعب الإله فوق أرضه، أما بن جوريون فقد قال: «إن خير مفسِّر للتوراة هو الجيش الإسرائيلى». ولا يختلف العلمانيون عن ذلك، فقد غيَّروا العبارة التوراتية». إن القداسة تنتشر فى بداية الأمر من الإله إلى كل ممتلكات اليهود، ثم تتركز فى الشعب، وتزداد تركيزًا فى الجيش، وتصل إلى درجة البلورة والتجسُّد فى شخص «المسيح المخلِّص اليهودى» الذى سيأتى ليُنقذ شعبه ويقودهم إلى صهيون ليحكم العالم.

ويبدو أن شارون تحيط به بعض هذه الادعاءات، ففى حرب ١٩٧٣ حين «نجح» فى الالتفاف حول القوات المصرية وإحداث الثغرة كتب الجنود الإسرائيليون على دبابته «شارون... ملك إسرائيل» (وملك إسرائيل هو أحد ألقاب المسيح المخلص اليهودى) بمعنى أن الرجل الذى سيُخلِّص إسرائيل وسيقود شعبه إلى الأمن النهائى المطلق والأزلى قد وصل!! وقد تواترت نفس العبارة أثناء الانتخابات الأخيرة.

فمن هو ملك إسرائيل الجديد؟ هو أريئيل صموئيل مردخاى شرايبر، وهو من يهود بولندا أصلاً (مثل معظم مؤسسى الدولة الصهيونية ولكن توجد فى حياته عدة تجارب أساسية لعلها شكلت رؤيته. ففى عيد ميلاده الخامس (عام ١٩٣٣) أهداه أبوه مسدسًا ليُبيِّن له كيف يمكن للمستوطنين الاستيلاء على وطن الآخرين. أما أمه فكانت تعرف كيف تحسم المعارك بطريقة بسيطة سهلة. ففى نزاع حول الأرض فى الثلاثينات تركت أطفالها عند جيرانها وخبأت بندقية فى العربة وسلحت نفسها بمقص أسلاك ضخمة وقفزت فى اتجاه موضع النزاع وقطعت السور الذى كان يضايقها. ثم أرسله أبوه إلى الكلية الزراعية ولكنه لم يكن راغبًا فى الدراسة، فهو يفضِّل الفعل والحركة والمسدس والمقص.

وقد اشترك فى حرب عام ١٩٤٨ وأصيب فى بطنه بينما كان يحرق أحد الحقول، وكاد يُقتَل لولا أن قام جندى شاب بنقله إلى مكان آمن، ولعل هذه الحياة العسكرية التى أفقدته ولاشك طفولته وصباه هى التى حوّلته إلى «شىء هادئ الأعصاب.. لا يمكنك أن تعرف إن كنت تحبه أو تكرهه، إن كنت تعجب به أم تخاف منه» (كما يقول بعض معارفه)، أى إن شارون شىء مصمت لا أبعاد إنسانية له، وولاؤه الحقيقى هو للعنف المسلح. إن البيئة المسلحة التى نشأ فيها شارون ساهمت فى خلق الرجل/الشىء، الذى سمى فيما بعد البولدوزر، لأنه يتحرك كالآلة المدمرة.

ولكن البولدوزر الذى يقوم بحل المشاكل بضربة واحدة (مثل أمه ذات المقص والبندقية) هل هو قادر على فرض السلام الإسرائيلى، ذى المرجعية الصهيونية، أى السلام الذى يحوّل القدس إلى عاصمة أزلية، ولا يفك المستوطنات، ويُبقى الدولة الفلسطينية دولة منقوصة السيادة، مجرد عدة كانتونات منفصلة، ويمنع ملايين الفلسطينيين من العودة إلى ديارهم، ويرفض الشرعية الدولية، نقول هل هو قادر على فرض السلام؟ وللحديث بقية.

□□□

جنرال اليأس الإسرائيلى

انتخاب شارون بهذه الأغلبية الساحقة هو تعبير عن التشدد الصهيونى، ولكنه أيضًا تعبير عن اليأس الإسرائيلى. وارتباط تصعيد العنف باليأس والإحساس بعدم الأمن ظاهرة متواترة بين المستوطنين فى كل الجيوب الاستيطانية. وهو أمر متوقع، فمع تصاعُد مقاومة السكان الأصليين، يتوارى حلم المستوطنين بالأمن الدائم تدريجيًا، فيتخندقون ويصعّدون العنف، وقد «ينجحون» فى إخماد المقاومة بعض الوقت، ولكنهم مع هذا

يدركون تمامًا أن هذا «النجاح» لن يؤدى إلا إلى هدنة مؤقتة، تتبعها هجمات وانتفاضات، ومن هنا العنف، ومن هنا اليأس.

وشارون نموذج جيد على هذا، فقد أحرز «نجاحات» عديدة فى حرب عام ١٩٤٨ إلا أنه مع هذا وجد نفسه يحارب ضد «المتسللين» العرب عاما بعد آخر. وبدأت حلقة العنف واليأس. ففى عام ١٩٥٢ حمل شارون مسدسه ومقصه هو وثمانية آخرون وقطعوا الأسلاك الشائكة وعبروا الحدود لينسفوا بيت أحد الفدائيين العرب المشهورين «بتسللهم» عبر الحدود. وقد وُصفت العملية آنذاك بأنها «ناجحة»، مع أنها نسفت بيتًا غير البيت المقصود. •

ومع هذا نظرًا «لنجاح» العملية، قرر الجيش الإسرائيلى الاستمرار فى تمثل هذه العمليات. فتقرر تشكيل وحدة للعمليات الخاصة (وحدة رقم ١٠١) لتقوم بعمليات إرهابية ضد العرب. فقاد شارون جنوده (و «شياطينه» كما كانوا يدعون) فى أول حملة رسمية سرية غير تقليدية (أى إرهابية) يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٥٣ فاتحة إلى قرية قبية العربية الفلسطينية التى تقع شمال القدس على بُعد كيلومترين من حدود إسرائيل. وفى الساعة السابعة والنصف من ذلك اليوم طوّقت قواته القرية وغمرتها بوابل من نيران المدفعية فدكت القرية دكًا على من فيها ثم تقدَّم المشاة فأجهزوا على الباقين على قيد الحياة. وقد دلت مواضع الإصابات فى أجسام الضحايا الذين سقطوا قرب أبواب بيوتهم من الدخل على أنهم لم يعطوا فرصة مغادرتها (كما يقول تقرير قائد مراقبى هيئة الأمم). واستعمل فى هذا العدوان جميع أسلحة المشاة من بنادق ورشاشات برن وستن وقنابل يدوية وقنابل حارقة ومتفجرات، وقد كانت جميع مخلفات الغارة من الأسلحة تحمل شعارات إسرائيل وكتابات بالعبرية. ويتلخص «نجاح» شارون هذه المرة فيما يلى:

١ – نسف ٤١ دارًا للسكنى.

٢ – قتل ٦٩ شخصًا نصفهم من النساء والأطفال.

٣ – قتل ٢٠ رأسًا من الماشية بينها بقر وخراف وماعز.

ولكن يبدو أن «نجاح» عملية قبية الباهر لم يؤت أكُله، إذ إننا نجد أن الجنرال اشترك بعد ذلك فى حُروب عديدة، الواحدة تلو الأخرى دون توقف. وكانت آلة الحرب التى يستخدمها دقيقة الصنع تحرز نجاحات «عديدة متتالية». ولكن ألا يثير تكرار «الحروب الناجحة» بعض الشك عن مدى نجاحها، لأن الحرب «الناجحة» حقًا هى الحرب التى تحقق السلام والطمأنينة والأمن الدائم للمحارب وأهله وشعبه.

وحينما تساقطت حوائط خط بارليف «الناجح» (وهو «نجاح» عاش الإسرائيليون فى ظلاله الثابتة لمدة أعوام ستة)، وحينما عبرت القوات المصرية قناة السويس وسقطت القوات الإسرائيلية فى هوة اليأس قام الجنرال بعملية الدفرسوار التى أدت إلى احتلال أجزاء من الضفة الغربية للقناة. ولكن يُقال إن صحفيًا سأل موشى ديان عن الحدود الجديدة التى «نجحت» إسرائيل فى الحصول عليها وعما إذا كانت أكثر أمنًا «ونجاحًا» من حدود ١٩٦٧ الآمنة الشهيرة! كان رد ديان إنه ليس لديه متسع من الوقت للإجابة على مثل هذه الأسئلة.

واستمرت «النجاحات» التى لا تنتهى، فبعد أن أحيل إلى الاحتياط عقب الحرب سارع إلى استثمار السمعة العسكرية التى جناها من الحرب لدخول الساحة السياسية، شأنه شأن كثير من الجنرالات الإسرائيلية. وبعد مفاوضات مع عدة جبهات استقر به المقام فى تكتل الليكود. ثم أحرز شارون «نجاحًا» آخر. فقد كان هو المحرك الرئيسى وراء غزو لبنان عام ١٩٨٢، الذى سُمى بعد قليل المستنقع اللبنانى. وقد قام بتضليل رئيس

الوزراء آنذاك، مناحم بيجن. وفى أثناء غزو لبنان ارتكبت مذبحة صابرا وشاتيلا على يد بعض المليشيات المارونية وبتغطية كاملة من الجيش الإسرائيلى. وأقيمت لجنة تحقيق رسمية حملّته المسئولية.

□□□

على عرفات أن يوقف الانتفاضة

من القضايا التى تواترت مؤخرًا فى الخطاب التحليلى الغربى والصهيونى الحديث عن من هو المسئول عن «اندلاع العنف». وعادة ما تُنسب المسئولية لياسر عرفات، باعتباره المسئول الأساسى وربما الوحيد عن الانتفاضة. وانطلاقًا من هذا يطالب المجتمع الدولى (أى الغربى) عرفات «بإيقاف فورى للعنف».

ومصدر الخلل الأساسى أن العالم الغربى (بما فى ذلك الصهاينة) قد أخفقوا فى رؤية ما يحدث، على أرض فلسطين المحتلة، على أنه مقاومة شعبية نبيلة للاحتلال، يقوم بها شعب يرفض الظلم ويطالب بحقوقه الشرعية، وهى مقاومة مشروعة، حسب القوانين الدولية والأعراف الإنسانية. ما يحدث فى فلسطين - فى تصورهم - هو مجرد أعمال شغب وعنف يحركها بعض هواة العنف والإرهاب الذين يطمعون فى تحقيق المكاسب الشخصية.

ولكن أى طفل بوسعه أن يرى الحقيقة، ويعرف أن ما يراه الغرب والصهاينة هو مجرد أوهام، وأنهم حينما يطلبون من عرفات أن يوقف العنف (أى المقاومة) ويلقى القبض على المجاهدين فإنهم يطلبون المستحيل. ولذا فالسؤال يطرح نفسه وبإلحاح شديد، ما الذى يجعل أهل الغرب يظنون ما يظنون؟ كى نفهم هذا لابد أن نعود لأسطورة التشكيل

الاستعمارى الاستيطانى الغربى بشكل عام (والصهيونية إن هى إلا إحدى تبديات هذا التشكيل). نقطة البداية عند المستوطنين البيض المهاجرين هى إنكار تاريخ السكان الأصليين فى الأرض التى سيهاجرون إليها ويستوطنون فيها، والتى يرون أنها أرض عذراء. والصهاينة ليسوا استثناء لهذه القاعدة، فهم يزعمون أن فلسطين إن هى إلا إسرائيل أو صهيون وأن تاريخها توقف تمامًا برحيل اليهود عنها.

وإن حدث أن كتانت الأرض العذراء مأهولة فإن أسطورة الاستيطان الغربية تحاول تهميشهم، فهم قليلو العدد، متخلفون يفتقرون إلى الفنون والعلوم والمهارات المختلفة، يهملون الثروات الطبيعية الكامنة فى الأرض وهم عادةً مجرد رحالة لا يستقرون فى أرض ما، وهم شعب لا تاريخ له، فأعضاؤه جزء لا يتجزأ من الطبيعة (كالثعالب والذئاب) ومن ثم لا حقوق لهم، ويمكن إبادتهم إن ثبت أن ضررهم أكثر من نفعهم.

وهذا لا يختلف البتة عن التصور الصهيونى للعرب فقد لخص وايزمان الصراع العربى الإسرائيلى بأنه «الصراع الأبدى بين الجمود من جهة، والتقدم والكفاءة والصحة والتعليم من جهة أخرى. إنها الصحراء ضد المدنية». وقد لاحظ أحاد هعام (مؤسس الصهيونية التى يقال لها روحية أو ثقافية) أن المستوطنين الصهاينة يعاملون العرب باحتقار وقسوة وينظرون إليهم باعتبارهم متوحشين صحراويين، وعلى أنهم شعب يشبه الحمير ولا يرون ولا يفهمون شيئًا مما يدور حولهم.

أما الشاعر الصهيونى تشرنحوفسكى فى قصيدته «وقف الحراسة» فيتحدث عن (الأغيار بما فى ذلك العرب) بوصفهم رجال الصحراء المتوحشين.

أما الفيلسوف الأمريكى البراجماتى الصهيونى، هوراس كالن، فإنه لم ير العربى إلا فى صورة شيخ قبيلة فى صحراء النقب، يلبس هو وأولاده ساعات مستوردة لا تبين الوقت، ويحملون أقلامًا لا يستعملونها فى جاكتات غربية يرتدونها فوق جلابيبهم. ووظيفتهم الأساسية هى تهريب الحشيش بطبيعة الحال.

إن التفكير الصهيونى تفكير غربى استعمارى عنصرى حتى النخاع، ولذا فهو يتسم بالتعميم والتجريد والانتقاء، فالمستوطن الصهيونى إن لم يفعل هذا وجد نفسه أمام وجود إنسانى متعين، له قداسته وله قيمته الإنسانية والحضارية، الأمر الذى يجعل من العسير عليه تقبل الاعتذاريات التى تهوغ استغلال العرب وإبادتهم، وتحويلهم إلى مجرد شىء يُنقل من مكان لآخر. كما يفعل هوارس كالن فى محاولته رسم صورة الفلسطينى فى المستقبل، كما يحب أن يراها، فقال: «لو حصل اللاجئون على جوازات سفر وغيرها من الوثائق التى تمكنهم من التحرك بحرية، ولو حصلوا على مبلغ كافٍ من المال ليشقوا به طريقهم إلى مكان من المتوقع أن يجدوا فيه سُبل العيش المعقولة. وقيل لهم إن هذا هو كل ما سيحصلون عليه ولا شىء آخر أبدًا، لو حدث هذا لبدءوا عندئذٍ فى الاعتماد على النفس».

إن العرب فى المنظور الإسرائيلى الصهيونى شىء يهدد الصهاينة بالخطر. ولذا نجد أن مركز أبحاث الأمن القومى فى جامعة حيفا (حسبما جاء فى جريدة يديعوت أحرنوت) بيَّن أن ٦٨٪ فقط من سكان الدولة العبرية سيكون من اليهود فى عام ٢٠٢٠، وذلك بعد أن يرتفع عدد العرب من ١,٣ مليون (اليوم) إلى ٢,١ مليون، وقد جاء فى البحث أن عدد سكان الضفة الغربية وقطاع غزة سيرتفع من ٣ ملايين إلى ٨ ملايين.

وحسب البروفيسور أرنون سوفر فإن العرب يشكلون اليوم ٤٩,٥٪ من سكان الكيان الصهيونى والضفة والقطاع، وفى عام ٢٠٢٠ سيشكلون ٥٨٪،

ويعتقد قادة مركز أبحاث الأمن القومى أن البعد الديموجرافى والتكاثر الطبيعى المرتفع وسط السكان العرب داخل الكيان الإسرائيلى وخاصة الضفة والقطاع سيقوضان الديمقراطية فى الدولة العبرية ويهددان بخطر فقدان مناطق جغرافية مثل الجليل والنقب الشمالى «حسب زعمهم».

ويسود الاعتقاد لدى الباحثين أن الكثافة السكانية العالية ستجعل من الدولة الصهيونية دولة عالم ثالث وتسبب فى تدهور بيئى فى كل أنحاء البلاد. والمتضررون الأساسيون سيكونون من السكان اليهود الذين يسكنون السهل الساحلى الذين قد يهاجرون من البلاد. وكذلك «ثمة إمكانية عالية أن يوحِّد السكان الفلسطينيون داخل الخط الأخضر والضفة والقطاع والأردن قواهم إلى درجة التقارب بينهم مما يمكنهم فى قادم الأيام من العمل معًا إلى جانب أشقائهم فى شرقى الأردن من أجل إقامة الدولة الفلسطينية الكبرى من البحر إلى الصحراء» (نشرة العودة ١٥ يونية ٢٠٠١).

وهذا لا يختلف كثيرًا عما جاء فى مقررات مؤتمر «ميزان القوة والأمن القومى الإسرائيلى» (الذى عقد فى هرتسليا وحضره شخصيات إسرائيلية بارزة قيادية أمنية وأكاديمية - حسبما جاء فى صحيفة هآرتس ٢٣/ ٢٠٠١٣). وقد تم الحديث فى هذا «المؤتمر العلمى» عن إمكانية نقل العرب وترحيل السكان خارج الحدود والعمل على اتخاذ خطوات تمنع زيادة نسبتهم.

إن العرب، فى المنظور الصهيونى، مجرد أشياء يمكن تحريكها من مكان لآخر (كما يمكن بطبيعة الحال إبادتها). تصدر لها الأوامر بالتحرك فتتحرك، ثم يصدر لها أوامر بالتوقف فتتوقف. فالفلسطينيون ليسوا كائنات حية، حياتها وطاقتها وحيويتها تنبع من داخلها، وإنما هم كائنات آلية يمكن تحريكها من الخارج، تمامًا كما يفعلون فى مسرح العرائس. ولعل رسالة وايزمان إلى أينشتاين (بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٤٩)

تلخص الموقف، فهو يرى العرب باعتبارهم شعبًا غير مستعد للديمقراطية، يحاول الجرى قبل أن يستطيع السير، ولذا من السهل أن يقع تحت تأثير البلاشفة والكاثوليك!

والصهاينة جاهزون بهذا التفسير السهل دائمًا، فحينما يتمرد العرب ويقاومون الظلم ويعبرون عن غضبهم فى أوائل القرن، فهذا ليس بثورة، كما أكد إسحق بن تسفى، رئيس دولة إسرائيل السابق، وإنما هو مجرد مذبحة حرَّض عليها قنصل روسيا القيصرى. وفى هذا الإطار حاول الصهاينة إنكار وجود أية هوية سياسية للعرب عامة، وللفلسطينيين على وجه الخصوص، أو أية مشاعر قومية من جانبهم. فالصهاينة فى إدراكهم للثورات العربية عليهم، ينكرون طبيعتها القومية والسياسية ويؤكدون لأنفسهم ولرفاقهم أن الدافع إليها ليس حب الأرض أو الوطن أو التمسك بالتراث، فالدافع إليها هو التعصب الدينى. وقد كان الصهاينة يلومون المسيحيين العرب، أحيانًا، باعتبارهم الأعداء الحقيقيين لمشروعهم الاستيطانى، ويصورون المسلمين فى صورة الفريق الطيب الذى يمكن التفاهم معه. وكانوا أحيانًا أخرى يفترضون العكس، فيؤكدون أن المسلمين هم العدو الحقيقى، وأن المسيحيين هم الفريق الذى يبدى استعدادًا كبيرًا للتعاون. وكانت الجماهير الفلسطينية بالنسبة إليهم مجرد غوغاء يتلاعب بها المهيجون الإقطاعيون والأفندية ولا تحركها الدوافع القومية. ويرى سمحا فلابان أن وايزمان كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن تمرُّد هذه الجماهير ليس تعبيرًا صادقًا عن حركة قومية خلاقة وإنما كانت تمليه الاعتبارات الإقطاعية والقَبَلية الضيقة.

وإلى جانب هذا، كان الصهاينة يرون الفلسطينى أو العربى حيوانًا أو مخلوقًا اقتصاديًا محضًا تحركه الدوافع الاقتصادية المباشرة. ولذا، فيمكن

حل المشكلة العربية (حسب هذا التصور) في إطار اقتصادى لا يكون سياسيًا بالضرورة. ولعل من الأمثلة الأولى على هذه الإستراتيجية الإدراكية رشيد بك، هذا العربى الذى تم تخليقه حسب المواصفات الصهيونية فى رواية هرتزل الأرض الجديدة القديمة، فهو يؤكد أن الوجود الصهيوني قد عاد على العرب بالنفع الكبير: لقد زادت صادرات البرتقال عشر مرات، كما أن الهجرة اليهودية كانت خيرًا وبركة، خصوصًا بالنسبة لملاك الأراضى لأنهم باعوا أرضهم بأرباح كبيرة. وظل لفيف من الصهاينة يؤمنون إيمانًا راسخًا بإمكان التغلب على معارضة الفلسطينيين عن طريق توضيح المزايا الاقتصادية الجمة التى سيجلبها الاستيطان الصهيوني، وعن طريق حثهم على الرحيل إلى البلاد العربية بعد إعطائهم التعويض الاقتصادى المناسب عن وطنهم. وكانت إحدى القناعات الإدراكية عند وايزمان أن تطوُّر فلسطين سيؤدى إلى أن يفقد العرب الاهتمام بالمعارضة السياسية.

هذا هو الأساس الإدراكى لطلب العالم الغربى والصهاينة من ياسر عرفات أن يوقف الانتفاضة.